

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ (الزعد: 27)

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

العلاقة بين
طعن الكافرين
في الدين،
وطلبهم آية
تثبت صدق آخر
المرسلين

لما ذكر الله تعالى طعنَ المشركين في نبوة النبي ﷺ، لقوله بالحشر والمعاد، وإنذارهم بحلول العذاب، وهذا واضح في سياق السورة في الآيات السابقة، ذكر هنا أنهم طعنوا في نبوته ﷺ؛ لأنه لم يأت لهم بمعجزة بيّنة، كما فعل الرّسل من قبل، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الآية.

ومما يُذكر في المناسبة أيضاً: أنّه سبحانه بعد أن بين أمر الذين فرّحوا بالحياة الدنيا، وما بسط الله لهم فيها من رزق، أظهر هنا أنهم - وهم الذين كفروا - بدل أن يشكروا الله على ما وهبهم من نعمة بسط الرّزق، فيقودهم هذا إلى الإيمان، تماذوا في غيهم، وبدّلوا نعمة الله كُفراً، فلم يكتفوا بفرحهم واغترارهم ببسط الرّزق؛ بل تعنّتوا مع النبي ﷺ، وتجاهلوا معجزته الكبرى القرآن، الذي لم يستطيعوا معارضته بمثل أقصر سورة منه، وطلبوا معجزة ماديّة، كعصا موسى ﷺ، وإحياء الموتى لعيسى ﷺ، وناقّة صالح ﷺ، فسجّل الله عليهم هذا الموقف، وذمهم بما هم أهلّه، وبين لهم أنّه ليس من سبب لكفرهم إلا ضلالهم وتيههم عن الآيات البيّنات، الذي نتج عنه إضلالهم من الله، فقال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾.

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أَنْابَ﴾: الإنبابة: الرجوع عن مُنكَرٍ بالتَّوْبَةِ وإخلاص العمل،

وأصل (نوب) يَدُلُّ على اعتياد مكان، ورجوع إليه. وسُمِّي النُّحْلُ نَوْبًا؛ لرجوعها إلى مقارَّها⁽¹⁾. ومعنى ﴿أَنَابَ﴾: تَابَ وَرَجَعَ.

❁ المعنى الإجمالي:

تكشف الآية عن أنَّ الذين فرحوا فَرَحٍ أَشَرَ وَبَطَرٍ، بما بَسَطَهُ الله لهم مِنَ الرِّزْقِ؛ هم الَّذِينَ كَفَرُوا، وَتُبِّينَ - كذلك - أنَّهم لم يُفِيدُوا مِنَ الأدلَّةِ النَّاصِعةِ مِنَ العقل والنقل على صِحَّةِ النَّبُوَّةِ، وَصَدَقِ الرَّسُولُ ﷺ، وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا حينَ زَعَمُوا أَنَّ عَدَمَ إيمانِهِمْ، هو لعدم كفاية القرآن كمعجزة، فطلبوا أن يأتيهم الرسول ﷺ بمعجزة مادية، كتلك التي كانت لسائر الأنبياءِ مِنْ قَبْلُ، فَأَجَابَهُمُ الْقُرْآنُ عَنْ طَلِبِهِمْ هَذَا: بِأَنَّ عَدَمَ إيمانِهِمْ ليس بسبب قصور في المعجزة القرآنية، ولا غيرها مِنْ معجزاته ﷺ، ولكن لأنَّهُمْ ضَلُّوا وَسَلَكُوا طريقَ الْغَيِّ، فشاءَ اللهُ إضلالَهُمْ؛ فالله سبحانه لا يهدي إليه إِلَّا مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَتَابَ وَأَنَابَ عَنْ كُلِّ أسبابِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالْبُعْدِ عَنِ اللهِ.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

دلالة عطف الآية على ما قبلها:

العطف هنا في قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ على ما سبقه، "عطفُ غَرَضٍ على غَرَضٍ، وقِصَّة على قِصَّة"⁽²⁾، أي: بعد أن فَرَّغَ مِنْ قِصَّةِ فَرَحِهِمْ بِالحياة الدُّنْيَا للدلالة على تعلُّقهم بها، دخل في قِصَّةٍ أُخْرَى، هي طلبُهُمْ معجزةً حسيَّةً بدل القرآن، للدلالة على بِلَادَتِهِمْ.

السَّرُّ في وضع المظهر موضع المضمَر:

السَّرُّ في وضع المظهر موضع المضمَر، حيثُ لم يَقُلْ: (ويقولون)،

لا آية أبلغ من
القرآن في ميدان
التحدي والتزال

يطلبون معجزةً
حسيَّةً، والقرآن
كافي عن كل
معجزة مادية

ذمُّهم
والتسجيل
عليهم، توبيخ
وتقريع لهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّائِب، والفردات، وأبو حيان، تحفة الأريب: (نوب).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/135.

وَأِنَّمَا قَالَ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ للتسجيل عليهم، وذمهم⁽¹⁾ بالصفة التي بسببها بَطَرُوا وأَشْرُوا، وبَدَّلُوا نعمة الله كُفْرًا، وهي صفة الكُفْرِ.

دلالة تكرير الآية مع سبق نظيرتها:

التكرار سببه
تعدد الأغراض

يبدو أنَّ الموضوع مُتَعَدِّدُ الأغراض؛ بحيث اقتضى الحال أن يُعاد الكلامُ عنه لتحقيق غرضٍ آخر، بعد أن ذُكِرَ سابقاً لتحقيق غرضٍ سابق، ويظهر الغرضُ في كلتا الآيتين في اختلاف فاصلتيهما، وحاصل الاختلاف بينهما: جاء تحقيقاً لغرض الكلام في كليتهما، فالخطاب في الآية الأولى كان موجَّهًا للنبي ﷺ؛ إشفافاً عليه، وتقوية لقلبه، وتثبيتاً له. وفي الآية الثانية - وهي التي معنا - كان الكلامُ موجَّهًا إلى الكافرين؛ ردًّا عليهم، وكشفًا لسوء نواياهم، وتعجيباً من حالهم. فكان الكلامُ المعادُ أشبه بـ "إعادة الخطيب كلمةً من خطبته؛ ليأتي بما بقي عليه في ذلك الغرض، بعد أن يفصل بما اقتضى المقامُ الفصلَ به، ثمَّ يتفرَّغ إلى ما تركه من قبل"⁽²⁾.

دلالة التعبير بالمضارع:

تكرّر نفس
الدعوى في
القرآن، وتعدّد
أغراضها

دلّ التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾، على تكرّر هذا القولِ منهم مرّاتٍ ومرّاتٍ، ولذلك أعاده القرآنُ في الإخبار عنه مرّاتٍ ومرّاتٍ، وكان له في كلّ مرّةٍ غرضٌ، وفي كلّ محلٍّ ردٌّ.

سرّ التعبير باسم الموصول:

استهجانهم
والتقليل من
شأنهم

دلّ التعبير عنهم باسم الموصول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، على استهجانهم والتقليل من شأنهم، لما تضمّنَتَه الصّلةُ من وصفهم بالكُفر وعدم الإيمان، والتّغابي في الطلب.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/19، والآلوسي، روح المعاني: 7/140.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/135.

دلالة استخدام ﴿لَوْلَا﴾:

دلّ التعبير بـ ﴿لَوْلَا﴾ التحضيضية على أمور:

الأول: تعجيزه ﷺ وإحراجُه بهذا الطلب.

الثاني: إيهام الرسول ﷺ بأنّهم صادقون في إرادتهم الإيمان به، لو أنّه أجابهم إلى ما طلبوا.

الثالث: ويدلّ أخيراً على أنّهم قومٌ أصحاب مكرٍ ودهاءٍ؛ حيثُ بدّوا بهذا التحضيضِ وكأنّهم يستحثّونه ﷺ على تلبية طلبهم، وأنّهم حريصون على ذلك، مترقبون له، وهذا ما كشفه القرآن في التّعجب منهم، والرّدّ عليهم، كما مضى.

دلالة اقتراح الكفّار آيةً أخرى، بعد نزول القرآن:

دلّ اقتراح الكفّار آيةً أخرى بعد نزول القرآن، على هروبهم من مواجهته؛ لأنّ هذه المواجهة قد استعصت عليهم؛ بل أهانتهم وبالغت في إحراجهم، خصوصاً أنّ القرآن قد مدّ لهم الحبلَ طويلاً جدّاً، عندما اكتفى في طلبه منهم بأن يأتوا بسورة من مثله، وبعد أن استفرّهم إلى قبول هذا التّحدّي، وقبول النّزال، بإعلانه أنّهم لن يستطيعوا ولو استعانوا بمن شاؤوا من الشّركاء والشّفعاء، ولو كانوا أهل الأرض جميعاً، قال تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: 23 - 24]، وقال: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨﴾ [الإسراء: 88].

أمّا المعجزة الحسيّة، فمن السّهل عليهم ادّعاء أنّها من قبيل السّحر، كما فعل فرعون مع موسى ﷺ، أو الانقضاض عليها

إشارة
التّحضيض إلى
التّحدّي في مكرٍ
ودهاءٍ

أرباب البيان
يُسلمون القياد
للقرآن، إذ ما
فوقه معجزة

وإهلاكها إن كانت قابلةً لهذا، كما فعل قومُ صالح ﷺ بالنّاقة، أو بإرجاع أمرِ المعجزة - ادّعاءً - إلى أيّ سببٍ آخر، إلّا أن تكون معجزةً إلهيّةً، وهو ما توقّفت كلّ قرائحهم عن تدبير مثله مع القرآن الكريم.

دلالة التعبير بلفظ ﴿آيَةٌ﴾ عن (المعجزة):

التّعبير بلفظ ﴿آيَةٌ﴾ هو أحد التّعبيرات القرآنيّة عن المعجزة، حيث إنّ القرآن لم يستخدم لفظ المعجزة، كما أنّ السّنة النّبويّة لم يُستخدَم فيها لفظُ المعجزة بمعناه المعروف، فهو اصطلاح حادثٌ نشأ في ضوء عِلْمِ الكلام. وللآية في اللّغة وفي استعمال القرآن معانٍ، منها: العلامّة والدليل والعبرة، وهذا كلّ ملحوظ في لفظ الآية حال دلالتهَا على المعجزة التي يؤيّدُ الله تعالى بها رُسُلَه، وتكون حُجَّتَهُمْ أمامَ المدّعوين.

دلالة التعبير بالإفراد في لفظ ﴿آيَةٌ﴾ دون الجمع:

لإيثار إفراد لفظ الآية أكثر من دلالة؛ منها: أنّه قد يُقصد الجنس وليس المفرد. ومنها: إشعارهم الرّسول ﷺ - ادّعاءً وكذباً - بأنّهم صادقون في الإيمان به لو أنزلت عليه آية واحدة، حسيّةٌ شبيهةٌ بآيات الأنبياء السّابقين، فأية واحدة تكفيهم. ومنها: التّعريض بهم؛ لأنّهم طلبوا آية واحدة، في الوقت الذي عموا فيه عن الآيات الكثيرة، والمعجزات الوفيرة، التي تأيّد بها النّبي ﷺ، وكفيهِ القرآن، معجزة المعجزات.

سرّ التعبير بالرّبوبيّة دون الألوهيّة:

أوثر التّعبير بالرّبوبيّة دون الألوهيّة، فقليل: ﴿آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، ولم يقل: (آية من الله)؛ ربّما لأنّه حكاية لقولهم، وقد نقله القرآن كما قالوه، وعليه يكون اختيارهم له من قبيل الاستعطاف؛ لأنّ تأييد الرّسل بالمعجزات مردودٌ إلى الرّبوبيّة، من جهة كونها نعمةً على

لا يوجد في
القرآن لفظ
(معجزة)، بل
لفظ (آية)

طلب الآية
تعزيزاً للرّسول،
وتحايل على
الإيمان برسائله

قولٌ مخفي،
أو مُشار به إلى
وجه النّعمة في
المعجزة

الرَّسُل؛ لكونها مُؤَيَّدَةٌ لَهُمْ، نَافِيَةٌ لِإِحْرَاجِهِمْ أَمَامَ الْمُخَاطَبِينَ، ثُمَّ إِنَّهَا نِعْمَةٌ عَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُعِينُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾:

في الإضافة إلى ضمير الغائب في قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾، إعراضٌ عن التَّكْلَامِ، فلم يقولوا: (مِنْ رَبَّنَا)؛ تعريضٌ وَغَمَزٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ، بَأَنَّ لَهُ رَبًّا مَزْعُومًا، وَأَنَّهُ لَيْسَ صَادِقًا، وَأَنَّ رَبَّهُ هَذَا غَيْرُ رَبِّهِمْ. كَمَا أَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنِ الْخُطَابِ فَلَمْ يَقُولُوا: (مِنْ رَبِّكَ)؛ تَشْدِيدًا فِي اللَّوْمِ وَالْعِتَابِ.

بلغة حمل الكلام على الحكاية أو الالتفات:

تتجلى تلك البلاغة في صورتين؛ الأولى: إمَّا أَنْ يَكُونَ التَّفَاتًا، وَأَصْلُ الْكَلَامِ: (لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ)، وَهُوَ مِنْ حِكَايَةِ الْقَوْلِ بِالْمَعْنَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: 31]، أَي: قُلْ لَهُمْ أَقِيمُوا، وَنُكْتَةُ ذَلِكَ هِيَ نُكْتَةُ الْإِلْتِفَاتِ، أَي: تَجْدِيدِ نَشَاطِ السَّامِعِ. الثَّانِيَةِ: وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ صَدَرَ مِنْهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لِيُبَيِّنَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ شُبْهَةَ انْتِفَاءِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ أَنَّهُ صَدَرَ مِنْهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، طَمَعًا فِي أَنْ يَرُدُّوهُمْ إِلَى الْكُفْرِ⁽¹⁾.

دلالة موقع جملة: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾:

سَأَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَأَجَابَ: "فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ طَابَقَ قَوْلُهُمْ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾؟ قُلْتَ: هُوَ كَلَامٌ يَجْرَى مَجْرَى التَّعْجِبِ مِنْ قَوْلِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةَ الْمُتَكَثِّرَةَ، الَّتِي أُوتِيَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُؤْتَهَا نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَكَفَى بِالْقُرْآنِ وَحْدَهُ آيَةً وَرَاءَ كُلِّ آيَةٍ، فَإِذَا جَعَدُوا وَلَمْ يَعْتَدُوا بِهَا، وَجَعَلُوهُ كَأَنَّ آيَةً لَمْ تَنْزَلْ عَلَيْهِ قَطُّ، كَانَ مَوْضِعًا لِلتَّعْجِبِ وَالِاسْتِنْكَارِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: مَا أَعْظَمَ عُنَادَكُمْ، وَمَا أَشَدَّ تَصْمِيمَكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ

تعريض به
أو بدو
الحقد عليه

السياق إمّا
لتجديد نشاط
السامع، أو هو
طعن مأكّر في
صدق الرسالة

حمل الكلام
على التعجب
والاستنكار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/130.

مَنْ يَشَاءُ، مَمَّنْ كان على صفتكم مِنَ التَّصْمِيمِ، وشِدَّةِ الشَّكِيمَةِ في الكُفْرِ، فلا سَبِيلَ إلى اهتدائهم، وإنْ أُنْزِلَتْ كُلُّ آيَةٍ، **وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**، كان على خلاف صفتكم **﴿أَنَابَ﴾** أَقْبَلَ إلى الحقِّ⁽¹⁾.

دلالة التعبير بقوله: **﴿قُلْ﴾**:

في التعبير بقوله: **﴿قُلْ﴾** دلالة على أَنَّ الله تعالى من كَثْرَةِ اعتناؤه برسوله ﷺ لم يدع له عناء الرَّدِّ على كلام الكُفَّار ودعواهم ومطالبهم، الَّتِي ظَنُّوْهَا تعجيزًا له ﷺ، فالله تعالى يُلَقِّنُ رسوله ﷺ الجوابَ المُناسبَ، في كُلِّ موضع طلبوا فيه هذا الطَّلَبَ، بما يُحَقِّقُ الغرضَ القرآنيَّ المنشودَ من وراء رَدِّه وجوابه.

ويمكن أن نَلَمَسَ هذا من خلال استعراض هذه الآيات، وكيف كان الجواب فيها. وهذه هي الآيات: قال تعالى: **﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الأنعام: 37]، وقال: **﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾** [يونس: 20]، وقال: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾** [الزهد: 7]، وقال: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾**. فنرى للقرآن في كُلِّ سؤالٍ منها جوابًا مختلفًا مُلقنًا للنبي ﷺ، مناسبًا للمقام، ومُحَقِّقًا للغرضَ القرآنيَّ منه.

دلالة التأكيد بـ **﴿إِنْ﴾**:

في قوله تعالى: **﴿إِنْ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾**، جاءت هذه العبارة ردًّا على الكافرين، وتعجيبًا من حالهم، وهم لا شكَّ منكرون جاحدون، وقد جاء التأكيد بـ **﴿إِنْ﴾** وبِمَوْكِدٍ آخَرٍ، هو التعبير باسم الجلالة

من نعمة الله
على رسوله
تلقينه الجواب
على الدعاوى
المغرضة

للتؤكدات
في الجملة
وأغراضها

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/497.

﴿اللَّهُ﴾، والعُدُولُ عن التّعْبِيرِ بالضمير عائداً إلى ﴿رَبِّهِ﴾، فلم يقل: (قل إنه يضلّ من يشاء).

سرّ التعبير بالضلال في قوله: ﴿يُضِلُّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، التعبير بـ ﴿يُضِلُّ﴾ وكذلك مقابله ﴿وَيَهْدِي﴾، يدلُّ على أنّ الإضلال والهداية من الله تعالى، فهو يَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ، ويوفق مَنْ يَشَاءُ، وأن لا علاقةً لذلك بنزول الآيات أو عدم نزولها، "فلو حصلت الآيات الكثيرة، ولم تحصل الهداية، فإنه لم يَحْصُلِ الانتفاع بها، ولو حصلت آية واحدة فقط، وحصلت الهداية من الله؛ فإنه يحصل الانتفاع بها، فلا تشتغلوا بطلب الآيات، ولكن تَصَرَّعُوا إلى الله في طَلَبِ الهدايات"⁽¹⁾، والدليل على أن لا علاقةً للهداية بنزول الآيات، أن هنالك من انغمس في الهداية انغماساً دون حاجة إلى معجزة، كأُمّ المؤمنين خديجة عليها السلام، والصديق أبي بكر رضي الله عنه، وعلي عليه السلام، وغيرهم كثير.

كلُّ ما في الكون
من هداية أو
ضلال، فهو من
الله

فإيمان هؤلاء لم يكن بسبب المعجزات؛ بل لإرادة الله لهم الهداية، ثمّ ما هيأه لهم من أسباب صحبتهم للرّسول صلى الله عليه وآله، وأطاعهم منه على صدّقه، وأتته أبعد عن موارد الكذب، ومواطن الرّيبة.

دلالة ذِكْرِ الْمَشِيئَةِ فِعْلاً مضارعاً:

مرّ بنا أن المشيئة آنية، وليست مُتَرَاخِيَةً، كما أنّها لا تُفِيدُ الأبدية، كي لا يُفْهَمَ من هذه العبارة: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾، أن مَنْ كان في وقته على ضلال، فسيبقى حتّى كذلك، فالواقع لا يُسَاعِدُ أبداً على هذا الفهم، فكثيرٌ ممّن كانوا منغمسين في الضلالة، قد فتح الله لهم باباً في صَرْحِ الهداية، فصاروا أكثر النَّاسِ إيماناً، بعد أن كانوا

الْحَثُّ عَلَى
التَّوْبَةِ،
والتَّحْذِيرُ مِنْ
التَّارِخِي فِيهَا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/39.

أكثرهم كفرًا وعصيانًا. والسرُّ في اختيار الصِّلة بصيغة المضارع ﴿يَشَاءُ﴾؛ للدلالة على استمرار المشيئة، حسب استمرار مكابرتهم⁽¹⁾.

بلاغة المقابلة بين قوله: ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿وَيَهْدِي﴾:

دلَّ الطَّباقُ في الجملتين على أنَّ الإضلال والهداية إنَّما هما مِنَ اللَّهِ تعالى، وفي ذلك حَتُّْ على تَرْكِ كلِّ أسباب الضلال، وتَلَمُّسِ أسباب الهداية، والفرع إلى الله تعالى لتحقيق هذا، "وإنَّما يَسْتَحِقُّ هذا الكلام - بحسب مقتضى الظاهر - أن يقابل بأن يقال: (ما أعظم كفركم، وأشدَّ عنادكم)، ونحوه، فَوُضِعَ هذا مَوْضِعَهُ، إشارةً إلى أنَّ المتعجب منه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾"⁽²⁾.

سرُّ ذكر المشيئة مع الإضلال، وعدم ذكرها مع الهداية:

لِذِكْرِ المشيئة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾، وعدم ذِكْرِها مع قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾، سببٌ واضحٌ؛ لأنَّ الإضلال متعلِّقٌ بالمشيئة من حيث إنَّ العبد قد يسعى في طريق الضلال، ثم يناله توفيقٌ مِنَ اللَّهِ، فيتحوَّلُ إلى الهداية، وقد يكون لِحِكْمَةٍ يعلمُها اللَّهُ، وتَخَصُّصُها للمشيئة؛ بخلاف مَنْ أناب إلى اللَّهِ، فتَابَ وأقبل عليه، فإنَّ قبوله في باب الهداية والثَّواب مُحَقَّقٌ بفضلِهِ تعالى، ولا يدخل في باب الاحتمال كالأوَّل⁽³⁾.

وفيه أيضًا تنبيهٌ إلى الهداية، وَحَثٌّ لِلْكَفَرَةِ على الإقلاع عمَّا هم عليه مِنَ الْعُتُوِّ وَالْعِنَادِ⁽⁴⁾.

(1) الألوسي، روح المعاني: 7/141.

(2) الشَّهاب الخفاجي، عناية القاضى: 5/237.

(3) جعله البقاعي من باب الاحتباك، فقال في نظم الدرر: 10/336: "ذُكِرَ المشيئة أولاً دالًّا على حذفها ثانيًا، وذُكِرَ الإنابة ثانيًا دالًّا على حذف ضدها أولاً". وما قاله لم يظهر أنَّه الوجه، لأنَّ تعلُّقَ الإضلال بالمشيئة ظاهر، أمَّا تعلُّقه بهداية مَنْ أناب فغير ظاهر، لأنَّ الله تعالى يقبل من أناب - تفضُّلاً - دون تقييد بالمشيئة، حتَّى إنَّنا نرى أنَّه سبحانه قد أنزل قبول توبة التائب منزلةً الواجب عليه تفضُّلاً، فقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 17].

(4) الألوسي، روح المعاني: 7/141.

بيان غرض
الطَّباق في
الجملتين
البليغتين

عدم تعليق
الهداية على
المشيئة، تكملاً
وتفضُّلاً

دلالة تعدّي الفعل ﴿وَيَهْدِي﴾ بـ ﴿إِلَيْهِ﴾:

في تعدّي الفعل ﴿وَيَهْدِي﴾ بـ ﴿إِلَيْهِ﴾ في قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾، تشریفٌ لهم⁽¹⁾، أي: للمُنِيِّينَ الْمُقْبِلِينَ عَلَى اللَّهِ، والمعنى: يهديهم هدايةً توفيقٍ واصطفاءٍ موصلةً إليه، وليس مُجَرَّدَ هدايةٍ دلالةٍ، فهذه لكلِّ النَّاسِ، كما قال سبحانه مُخْبِرًا عَنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾⁽²⁾ [البعد: 10]، ولا تختصَّ بِمَنْ وَصِفُوا بِالْمُهْتَدِينَ.

دلالة تقديم الإضلال على الهداية:

في تقديم الإضلال على الهداية في الآية، تعريضٌ بالَّذِينَ كَفَرُوا، القائلين: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾، بأنَّهم مَمَّنْ شَاءَ اللَّهُ إضلالًا لهم، هذا فضلًا عما هو معروف من تقديم ذِكرِ المَفسِدِ على المَصلِحِ؛ لأنَّ دَرَجَةَ المَفسِدِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ المَصلِحِ، ولَمَّا أَنَّ كَانَتِ الثَّانِيَّةُ مَرْتَبَةً عَلَى الْأُولَى، فلا حصولَ للهداية دونَ سَلْبِ لِلضَّلَالِ.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِ﴾، على قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾:

دلَّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِ﴾، على قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، على التَّأَكِيدِ وَالتَّقْوِيَةِ، وعلى الحَصْرِ أَيْضًا.

سرُّ التعبير بالإنابة دون الرجوع:

عَبَّرَ بِالْإِنَابَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ دونَ الرَّجُوعِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ ﴿أَنَابَ﴾ يَدُلُّ عَلَى خُصُوصِ الرَّجُوعِ مِنْ شَرٍّ إِلَى خَيْرٍ، فَحَقِيقَةُ مَعْنَاهُ: "دخل في نوبة الخير"⁽²⁾.

سرُّ التعبير باسم الموصول ﴿مَنْ﴾ دون (الَّذِي):

عَبَّرَ بِاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿مَنْ﴾، دونَ (الَّذِي) فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُمُومِ مَنْ تَحَقَّقَتْ فِيهِمُ الصَّلَةُ، وَلَيْسَ عَلَى التَّعْيِينِ، فَكُلُّ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجَعَ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَهُوَ - بِفَضْلِ اللَّهِ - مَقْبُولٌ.

تشریفُ المُنِيِّينَ
بِالتَّعْدِي
بِالحرفِ (إِلَى)

التَّعْرِيزُ
بِضَلَالِ
الكَافِرِينَ، هُوَ
تَقْرِيعٌ لَهُمْ،
وَتَهْوِينٌ مِنْ
شَأْنِهِمْ

بِإِذْغَةِ الْحَصْرِ
وَالتَّأَكِيدِ، فِي
السِّيَاقِ الْمَجِيدِ

الْمُنْيَبُ مَنْ دَخَلَ
فِي نَوْبَةِ الْخَيْرِ

دَلَالَةُ اسْمِ
الْمَوْصُولِ عَلَى
الْعُمُومِ، وَآثَرُهُ
فِي السِّيَاقِ

(1) أَبُو السَّعُودِ، إرشاد العقل السليم: 5/19.

(2) الرَّمُضْشَرِيُّ، الكَشَافُ: 2/528.

سرّ التعبير بالماضي، دون المضارع:

استدعاء
الهداية السابقة
للإنابة

عبّر بالماضي في قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، دون المضارع: (ينيب)؛ "للإيماء إلى استدعاء الهداية السابقة للإنابة"⁽¹⁾، والمراد قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾، أي: لِيُسَاعِدَ استدعاؤها على التَّحَقُّقِ بالإنابة والتَّوْبَةِ، فَإِنَّ الإنسانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ عاقبةَ الإنابة هي الهدى وما يترتب عليه من جزاءٍ عظيم، كَدْخُولِ الْجَنَّةِ والتَّعَمُّعِ فيها، ورؤيةِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، كان ذلك وسيلةً ناجعةً، وقوَّةً دافعةً نحو الإقلاعِ عن الذُّنُوبِ، والإسراعِ بالتَّوْبَةِ إلى غُفَّارِ الذُّنُوبِ، وسَتَّارِ الْعُيُوبِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/20، والآلوسي، روح المعاني: 7/141.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 24، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-21-0

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 24: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.

1- القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-768-21-0

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»